المحاضرة الرابعة

الأصل الثالث عند المعتزلة: الوعد والوعيد

تمهيد

يقصد المعتزلة بأصل الوعد والوعيد أن الله تعالى صادق في إخباره، وأن ما وعد به من الثواب وما توعّد به من العقاب سيتحقق وفق مقتضى العدل والحكمة. ويتصل هذا الأصل اتصالًا مباشرًا بمسألة المسؤولية الأخلاقية؛ فإذا كان الإنسان فاعلًا مختارًا، وكان الله تعالى عادلًا، فإن الطاعة والمعصية لا بد أن يترتب عليهما أثر حقيقي في الآخرة. [1] ولذلك جعل المعتزلة الثواب والعقاب جزءًا من النظام الأخلاقي، لا أمورًا جائزة الوقوع أو عدمه من غير معيار منضبط.

أولًا: مفهوم الوعد والوعيد

الوعد هو الإخبار بالثواب المترتب على الطاعة، أما الوعيد فهو الإخبار بالعقاب المترتب على المعصية. ويرى المعتزلة أن إنجاز الوعد واجب؛ لأنه مقتضى الصدق والعدل، وأن إنفاذ الوعيد واجب كذلك إذا مات المكلّف مصرًّا على ارتكاب الكبيرة من غير توبة. وقد صاغوا هذا الموقف في مواجهة الاتجاه الإرجائي الذي وسّع دائرة الرجاء، ورأى أن المعصية لا تضر مع الإيمان، أو أن أمر العصاة مفوّض إلى الله تعالى. [1] [2]

ولا يعني قول المعتزلة بوجوب إنجاز الوعد وإنفاذ الوعيد أن الله تعالى خاضع لقوة خارجية تُلزمه بذلك؛ بل يقررون أن هذا الوجوب نابع من صدقه وعدله وحكمته. فالله تعالى لا يخلف الميعاد، ولا يجوز، وفق نسقهم الكلامي، أن يعاقب الطائع أو يثيب العاصي من غير موجب؛ لأن ذلك يتعارض مع ما يدركه العقل من حسن العدل وقبح الظلم.

ثانيًا: الكبيرة والتوبة

يتوسط أصل الوعد والوعيد بين أصل العدل وأصل المنزلة بين المنزلتين. فمرتكب الكبيرة عند المعتزلة، إذا مات من غير توبة، لا يُعامل معاملة المؤمن الكامل، ولا يُحكم عليه بالكفر والخروج من الإسلام، بل يوصف بالفسق ويستحق العقاب الأخروي. أما إذا تاب قبل الموت، قُبلت توبته وعاد إلى استحقاق الثواب؛ لأن التوبة ترفع أثر الذنب وتعيد ترتيب العلاقة التكليفية بين الفعل والجزاء. [1]

وإذا مات مرتكب الكبيرة مصرًّا عليها، ذهب جمهور المعتزلة إلى القول بخلوده في النار، مع اختلافهم في بعض تفاصيل الخلود ودرجات العذاب. وينبغي التمييز بين الحكم الأخروي والحكم الدنيوي في هذه المسألة؛ فمرتكب الكبيرة في الدنيا مسلم تجري عليه أحكام الإسلام الاجتماعية والفقهية، ولا يُستباح دمه أو ماله لمجرد ارتكابه المعصية. [2]

ثالثًا: علاقة الأصل بالشفاعة والمغفرة

أعاد المعتزلة تفسير بعض مباحث الشفاعة والمغفرة في ضوء منظومتهم العقلية. فلم ينفوا كل أشكال الشفاعة، لكنهم تحفظوا من تصورها إسقاطًا حتميًا لعقاب مستحق من غير توبة؛ لأن ذلك، في نظرهم، يتعارض مع مقتضى الوعيد والعدل. وذهبوا إلى إمكان تعلق الشفاعة بزيادة الثواب ورفع الدرجات أو بأهل الطاعة، بحسب التفصيلات الواردة في مؤلفاتهم.

وأكد المعتزلة كذلك أن المغفرة المرتبطة بالتوبة لا تتعارض مع أصل الوعد والوعيد؛ لأن التوبة تغيّر وصف الفعل وحكمه، فلا يعود المكلّف، بعد صدق التوبة، على الحالة نفسها التي كان عليها حال الإصرار على المعصية.

رابعًا: القيمة الأخلاقية لأصل الوعد والوعيد

يهدف المعتزلة من خلال هذا الأصل إلى صون الجدية الأخلاقية للدين. فلو استوى المطيع والعاصي في الجزاء، أو أمكن أن يُغفر الإصرار على الكبيرة من غير توبة على نحو يُبطل أثر الوعيد، لضعف معنى التكليف، وفقدت الأوامر والنواهي جانبًا من قوتها التربوية والرادعة. ولذلك جعل المعتزلة الثواب والعقاب جزءًا من نظام العدالة الإلهية، لا موضوعًا منفصلًا عن أفعال الإنسان ومسؤوليته.

ومع ذلك، خالف الأشاعرة وأهل السنة المعتزلة في مفهوم وجوب إنفاذ الوعيد؛ فقرروا أن الوعيد حق لله تعالى، وأن له أن يعفو عن العصاة من غير أن يكون عفوه ظلمًا. أما المعتزلة، فرأوا أن العفو عن مرتكب الكبيرة بلا توبة يتعارض مع مقتضى الوعيد. ويكشف هذا الخلاف عن تباين أعمق حول معنى الوجوب على الله تعالى، ومدى قدرة العقل على الحكم على أفعاله. [3]

خاتمة

يمثل أصل الوعد والوعيد التعبير المعتزلي عن حتمية الجزاء الأخلاقي واتساقه مع صدق الله تعالى وعدله. فالوعد يضمن ألا يضيع عمل الخير، والوعيد يؤكد خطورة الإصرار على الشر. وبذلك يحافظ هذا الأصل على مركزية المسؤولية الإنسانية، مع بقائه موضع خلاف بارز بين المعتزلة وسائر المدارس الكلامية، ولا سيما في قضايا المغفرة والشفاعة وحدود الوجوب.

مصطلحات محورية

المصطلح	الدلالة في سياق المحاضرة
الوعد	الإخبار بالثواب المترتب على الطاعة.
الوعيد	الإخبار بالعقاب المترتب على المعصية وفق تصور المعتزلة.
مرتكب الكبيرة	المكلّف الذي يرتكب كبيرة؛ فهو عند المعتزلة فاسق في الدنيا ومستحق للعقاب إذا مات بلا توبة.
التوبة	الرجوع عن المعصية بما يغيّر حكم الفعل وأثره التكليفي.
الشفاعة	مبحث أعاد المعتزلة تفسيره بما لا يؤدي إلى إسقاط العقاب المستحق بلا توبة.

المراجع

[1] القاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمسة، أبواب الوعد والوعيد والتوبة، نسخة رقمية.

[2] Shalahudin Kafrawi, “Muʿtazilites, Muʿtazila,” Encyclopedia of Islam and the Muslim World، مدخل موسوعي.

[3] Shalahudin Kafrawi، "Muʿtazilites, Muʿtazila"، Encyclopedia of Islam and the Muslim World، مدخل متاح عبر Encyclopedia.com.